

الحرب نزاع وصراع مسلح بغية تحقيق هدف سواء كان اقتصادياً أو توسيعياً أو لبسط نفوذ ورغم ما تخلفه من ويلات ورغم أنها أصبحت خطرًا يهدى البشرية بالزوال والانقراض لما أضحت تمتلكه الدول الكبرى من أسلحة دمار شامل فإنَّ الكثير من شباب اليوم لا يعون مدى خطورة هذه الآفة ولا يرون منها إلا جانبها البطولي وهذا حال صديقي الذي ما فتئت أخبار الحروب تستهويه وينفق الكثير من وقته في جمع صور الأسلحة وقد زرته الحرب واكتشفت حينها أنَّ ولعه بأخبار الحروب وأنواع الأسلحة إنما يعود إلى جهله بمخاطر هذه الآفة فقررت أن أقنعه بتهييدات الحرب وويلاتها. هي الحجج التي سيلجأ إليها كلَّ من الدفاع عن وجهة نظره؟ وهل سأنجح في تغيير رأيه؟ كان صديقي منبهراً بالحرب وألاتها والقتال وأسلحته فكان يجمع صوراً لها ويعملها على جدران غرفته حتى خلت نفسي لـمَا دخلتها في ساحة حرب الحروب وبادرني بلهجـة الواقع من أمره: أتعلـم ، يا صديقي ، أنَّ الأسلحة المتطورة مظهر من مظاهر التقدم والقوة والسيطرة فانظر إلى الولايات المتحدة فهي لم تهيمن على العالم إلا بفضل أسلحتها الفتاكة أمـا الدول الضعيفة فهي لا تمتلك سوى أسلحة بدائية عفا عليها الزمن فهي أشبه بـلـعب أطفال ألا تعجبك صورة جندي قوي؟

يحمل والتنفس فقد صاحتـت الإنسان منذ بدء وجوده، إنَّ الإنسان ، مـيـال بطبعـه إلى السلطة والتسلط بل إنَّ الصـراعـانـون تسـيرـ عليه كلَّ الكائنـاتـ ، فـانـظـرـ إـلـىـ السـمـاءـ تـجـدـ الكـواـكـبـ فـيـ تـجـازـبـ وـتـدـافـعـ وـتـأـمـلـ الـأـرـضـ تـجـدـ حـيـوانـاتـهاـ فـيـ صـرـاعـ أـبـدـيـ لأـجـلـ الـبقاءـ وـاقـرـأـ تـارـيـخـ الـأـمـمـ فـسـتـكـتـشـفـ أـنـهـ تـارـيـخـ حـرـوبـ تـلـوـ أـخـرـيـ، هـذـهـ هيـ سـنـةـ الـحـيـاةـ نـظـرـتـ إـلـيـهـ فـيـ وجـومـ وأـدـرـكـتـ أـنـيـ فـيـ مـوـقـفـ حـرـجـ وـأـبـقـنـتـ أـنـ مـنـ الصـعـوبـةـ إـقـنـاعـهـ بـخـطـإـ تـصـورـهـ لـكـنـيـ صـمـمـتـ عـلـىـ الـمـضـيـ قـدـمـاـ فـيـ الدـرـبـ الـذـيـ تـخـيرـتـ بـكـلـ عـزـيمـةـ وـثـبـاتـ فـقـلـتـ بـكـلـ هـدوـءـ وـرـصـانـتـوـالـهـ يـاـ صـدـيقـيـ إـنـ أـمـرـكـ عـجـيبـ وـسـلـوكـ غـرـيبـ فـهـلـ يـعـقـلـ أـنـ تـغـطـيـ جـدـرانـ غـرـفـتـكـ بـصـورـ الدـمـارـ وـالـخـرابـ وـالـمـوـتـ؟

ثـمـ تـأـخـذـ تـأـمـلـهـ فـيـ إـعـجـابـوـانـشـاءـ وـكـأـنـكـ تـأـمـلـ مـنـظـرـاـ طـبـيـعـيـاـ خـلـابـاـ، لـقـدـ اـنتـبـهـتـ إـلـىـ الـظـاهـرـ وـغـفـلـتـوـيـلـاتـهاـ إـمـاـ لـأـنـكـ لـمـ تـعـشـهاـ وـلـيـتـكـ لـأـتـعـيشـهاـ أـلـاـنـكـ ذـهـبـتـ ضـحـيـةـ الـأـفـلـامـ وـالـإـعـلـامـ الـخـادـعـ الـذـيـ يـخـرـجـ الـمـجـرـمـينـ فـيـ صـورـ أـبـطـالـ يـقـنـدـيـ بهـمـ فـأـنـتـقـفـ دونـ أـنـ تـشـعـرـ فـيـ صـفـ سـفـاكـيـ الـدـمـاءـ وـأـعـدـاءـ الـبـشـرـيـةـ مـنـ صـانـعـيـ الـحـرـوبـ وـتـجـارـهـاـ وـلـتـعـلـمـ أـنـ الـأـسـلـحـةـ الـتـيـ شـعـفـتـ بـهـاـ صـنـعـتـ لـتـوـفـرـ الـمـالـلـشـرـذـمـةـ مـنـ الـلـوـحـوشـ، أـوـ لـمـ تـسـأـلـ نـفـسـكـ عـنـ الـمـجـالـ الـذـيـ تـسـعـمـلـ فـيـهـ الـأـسـلـحـةـ؟ـ وـهـلـ تـسـتـخـدـمـ مـثـلـاـ لـلـإـعـمـارـ وـالـبـنـاءـ وـالـرـقـيـ بـالـفـرـدـ وـالـإـنـسـانـيـةـ؟ـ إـنـ كـلـ مـسـدـسـ وـكـلـ دـبـابـةـ وـكـلـ دـبـابـةـ وـكـلـ صـارـوخـ يـتـسـبـبـ عـاجـلاـ أوـ آجـلاـ فـيـ سـفـكـ أـرـوـاحـ الـمـنـاثـ بـلـ الـآـلـافـ بـلـ الـمـلـاـيـنـ مـمـنـ لـمـ يـقـرـفـ أـيـ ذـنـبـ ، فـحـيـثـمـ حـلـتـ الـحـرـبـ اـنـتـشـرـ الـمـوـتـ وـخـيـرـ دـلـيلـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـ الـحـرـبـيـنـ الـعـالـمـيـتـيـنـ قـدـ خـلـفتـ أـكـثـرـ مـنـ سـبـعـينـ مـلـيـونـ قـتـيلـ بـلـ إـنـ الـقـبـلـةـ الـذـرـيـةـ الـتـيـ أـلـقـيـتـ عـلـىـ هـيـرـوـشـيـمـاـ بـالـيـابـانـأـلـفـاـ مـنـ سـكـانـهاـ وـلـاـ يـتـوـقـفـ الـيـوـمـ نـزـيفـ الـدـمـ فـيـ كـلـ مـكـانـ أـشـعـلـتـ فـيـهـ نـارـ الـحـرـبـ وـهـبـ أـنـ حـرـيـاـ عـالـمـيـةـ ثـالـثـةـ تـنـدـلـعـ فـسـتـغـدـوـ الـأـرـضـ بـمـاـ فـيـهـاـ أـثـرـاـ بـعـدـعـينـ وـهـوـ مـاـ أـدـرـكـهـ غـانـدـيـ فـيـ قـوـلـهـ:ـ "يـجـبـ عـلـىـ الـبـشـرـيـةـ أـنـ تـضـعـ حـدـالـحـرـوبـ قـبـلـ أـنـ تـضـعـ الـحـرـبـ حـدـاـلـلـبـشـرـيـةـ"ـ، إـنـ كـلـ مـنـ عـاـيـشـ الـحـرـبـ كـانـ إـمـاـ مـقـتـولاـ أوـ مـشـرـداـ أوـ مـشـوـهاـ فـكـمـ مـنـ طـفـلـ سـرـقـتـ أـحـلـامـهـ؟ـ وـكـمـ مـنـ شـابـ قـتـلـ طـموـحـاتـهـ؟ـ وـكـمـ مـنـ اـمـرـأـ اـنـتـهـكـ عـرـضـهـ؟ـ وـكـمـ مـنـ إـنـسـانـ وـلـدـ سـلـيـمـاـوـإـعـاـقـاتـ خـطـيرـةـ يـجـنيـ المصـابـ تـبعـاتـهاـ طـيـلةـ حـيـاتـهـ وـمـاـ يـؤـسـفـ أـكـثـرـ أـنـهـ إـلـيـوـنـاـ هـذـاـ مـاـ زـلـنـاـ نـشـاهـدـ وـلـادـ رـضـعـ مـشـوـهـينـ أـصـيـبـ أـجـادـهـمـ بـالـمـلـوـثـاتـالـإـشـعـاعـيـةـ النـاتـجـةـ عـنـ الـأـسـلـحـةـ الـذـرـيـةـ وـالـكـيـمـيـائـيـةـ وـهـيـ فـيـ نـفـسـ الـوقـتـ السـبـبـ فـيـ اـنـتـشـارـ أـمـرـاضـ خـطـيرـةـ بـيـنـ السـكـانـ كـالـسـرـطـانـ ، بـلـ كـيـفـ بـإـسـانـ يـعـيـشـ تـحـتـ أـزـيزـ الرـصـاصـ وـصـفـارـاتـ إـلـتـذـارـ وـدـوـيـ الطـائـرـاتـ وـقـصـفـ الدـبـابـاتـ أـنـ يـخـرـجـ مـنـ كـلـ ذـلـكـ سـلـيـمـاـ؟ـ إـنـ الـخـوفـ وـالـهـلـعـ وـالـصـدـمـاتـ وـالـمـشـاهـدـ الـمـرـعـبـةـ الـتـيـ يـعـيـشـهاـ الـفـرـدـ زـمـنـ الـحـرـبـ لـاـ بـدـ أـنـ تـخـلـفـ لـهـ أـمـرـاـضاـ نـفـسـيـةـ وـأـزـمـاتـ عـصـبـيـةـ تـلـازـمـهـ حـتـىـ بـعـدـ اـنـتـهـاءـ الـحـرـبـ بـلـ تـفـضـيـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ الـاـخـتـالـلـ الـعـقـلـيـ وـشـاهـدـنـاـ عـلـىـ ذـلـكـ مـاـ عـانـاهـ الـجـنـودـ الـأـمـرـيـكـيـوـنـ إـلـىـ حـرـبـ الـفـيـتـنـامـ وـحـرـبـ الـخـلـيـجـ وـقـدـ تـحـولـتـ شـوـارـعـ الـمـدـنـ الـكـبـرـىـ الـمـنـكـوبـةـ فـيـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الثـانـيـةـ إـلـىـ سـاحـاتـ يـتـنـقـلـ فـيـهـاـ آلـافـ الـمـخـتـلـئـنـ عـقـلـيـاـ وـهـكـذـاـ تـحـرـمـ الـحـرـبـ الـفـرـدـ مـنـ حـيـاتـهـ وـسـلـامـتـهـ الـجـسـدـيـةـ وـالـنـفـسـيـةـ وـالـعـقـلـيـةـ أـمـاـ سـلـوكـيـاـ فـالـحـرـبـ تـفـقـدـ الـإـنـسـانـ الـمـبـادـئـ وـالـعـقـيـدةـ الـتـيـ نـشـأـ عـلـىـ فـتـقـيـةـ عـلـىـ إـنـسـانـيـتـهـ وـقـيـمـهـ فـيـغـدـوـ الـمـحـارـبـ كـالـلـوـحـشـ الـكـاسـرـ يـرـتـكـ جـرـائـمـهـ دـوـنـ رـحـمـةـ أـوـ شـفـقـةـ وـنـرـىـ الـمـجـازـرـ وـالـمـذـابـحـ وـالـتـعـنـيـبـ وـالـتـنـكـيلـ فـيـ عـصـرـ كـنـاـ نـعـتـقـدـ فـيـهـ أـنـ الـإـنـسـانـ قـدـ تـخـلـصـ مـنـ الـهـمـجـيـةـ وـالـبـدـائـيـةـ فـلـ أـحـدـ يـنـسـىـ مـاـ عـاـشـهـ الـمـسـلـمـونـ فـيـ الـبـوـسـنـةـ مـنـ قـتـلـ جـمـاعـيـ وـهـوـ مـاـ يـحـدـثـ الـيـوـمـ فـيـ بـورـماـ حـيـثـ يـبـادـ الـمـسـلـمـونـ عـلـىـ مـرـأـيـ وـمـسـعـ مـنـ الـعـالـمـ أـجـمـعـ وـهـوـ حـالـ الـمـدـنـيـ كـذـلـكـ فـمـتـيـ قـدـ فـقـدـ مـوـرـدـ رـزـقـهـ وـمـسـكـنـهـ وـمـمـتـكـاهـ أـقـبـلـ عـلـىـ السـرـقةـ وـالـجـرـيـمةـ مـنـ أـجـلـ تـوـفـيرـ الـطـعـامـ لـنـفـسـهـ وـلـعـائـلـهـ وـالـإـبـقاءـ عـلـىـ حـيـاتـهـ كـمـاـ يـضـطـرـ جـلـ الـمـدـنـيـيـنـ إـلـىـ الـحـرـبـ مـنـ بـلـدـاـنـهـ وـالـلـجـوـءـ إـلـىـ مـخـيـمـاتـ لـاـ تـتـقـوـفـ فـيـهـاـ أـبـسـطـضـرـورـيـاتـ الـحـيـاةـ الـكـرـيمـةـ وـلـاـ تـحـمـيـهـ مـنـ قـرـ الشـتـاءـ أـوـ حـرـ الصـيفـ وـلـاـ دـلـعـلـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ مـنـ حـالـ إـخـوـانـنـاـ الـسـوـرـيـيـنـ وـالـفـلـسـطـيـنـيـيـنـ الـذـيـنـ شـرـدـتـهـمـ الـحـرـبـ فـيـ كـلـ أـصـقـاعـ الـعـالـمـ وـحـرـمـتـهـ مـنـ عـيـشـ آـمـنـ فـيـ وـطـنـيـهـمـاـ وـلـاـ تـنـسـ ذـلـكـ أـكـثـرـ مـنـ مـلـيـونـ عـرـاقـيـ هـرـبـواـ مـنـ بـلـدـهـمـ بـحـثـاـ عـنـ مـكـانـ آـمـنـ وـهـكـذـاـ تـتـشـرـدـ الـأـسـرـ وـيـتـيـمـ الـصـغـارـ وـتـرـمـلـ النـسـاءـ فـالـحـرـبـ كـمـاـ نـعـتـهـ الـعـربـ غـشـوـمـ لـأـنـهـ لـاـ تـمـيـزـ بـيـنـ ضـحـيـاـهـاـ وـمـثـلـهـ كـمـثـلـ

الكافوس المزعج بل هي جحيم الدنيا فيه يصبح الخوف خبزا يومياً وتصبح نظرة الإنسان للحياة نظرة مظلمة وينضب الأمل منه وصدق المثل البولوني عندما قال "عندما تبدأ الحرب يفتح الجحيم أبوابه" فكيف تزعم أن الصراع من الشهوات والغرائز؟ بل هو من ميولات النفس الأمارة بالسوء التي يجب كبحها وتهذيبها أما القانون الذي تحذّث عنه فهو قانون الغاب حيث يأتي القوي على الضعف وأجرد بالإنسان المعاصر لا يعود إلى مرحلة التوحش والبدائية وهو ما أدركه شاعرنا أبو القاسم الشابي في قوله فهو على حيرته وترى له تنكر أن الحرب في كثير من الأحيان حتمية فهي فرصتنا للدفاع عن النفس واسترداد الأرض المسلوبة فما أخذ بالفقرة لا يسترد إلا بالفقرة وشاهدنا حركات التحرر في البلدان التي استعمرت أراضيها ولم تسترجعها إلا براقة الدماء تنكر أننا اليوم نغير بشهدائنا الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل طرد المستعمر؟ أليس الاستسلام في هذه الحالة وصمة عار؟ ظن أنه قد أفهمني لكنني فاجأته بلسان فصيح ومنطق بلغ وأدب جم: صحيح أنه على كل مواطن الدفاع عن وطنه وحريته لكن تبقى الحرب الطلاّب الأخير باعتبارها مظهرا دالاً على الوحشية والهمجيّة وباعتبار أن كل الأطراف خاسرة في الحرب حتى المنتصرة ترهقها تكاليفها وإذا لم تقنع بخطورة الحرب على الفرد فأكيد أنك ستقتتنع بآثارها وويلاتها على المجتمع عذلك أن الحرب تنشر الأوبئة والأمراض نتيجة عدم توفر الرعاية الصحية وتسبّب في استفحال الفساد والجريمة فيغيب الأمن وتنتهك كل المحرمات إذ في الحرب لا تراعي قوانين أو مبادئ وينتصب محلها العنف والكراهية والحقد فيكون البقاء للأقوى ويسيطر منطق الغاب على حد قول المثل هو يأكل حوتاً وقليل الجهد يموت" أما ثقافياً فالحرب تدمّر المعالم الحضارية والدينية والثقافية كالمتاحف والمساجد والمؤسسات التربوية وتنهب الآثار التي تعاقبت على تشييدها حضارات متتالية ولنا في ذلك مثل وهو حرق وتأريخها وبدل التعايش السلمي بين الشعوب تدخل في تحالفات ونزاعات تخسر معها ثروتها البشرية من أطباء وعلماء وإطارات أما اقتصادياً فالحرب تخرّب المنشآت وتدمّر البنية التحتية كالجسور والمصانع والموانئ والسكك الحديدية والمطارات ووسائل النقل فتتلاطم الثروات ويتوقف الإنتاج الذي يفضي بدوره إلى تفاقم البطالة وما ينتج عنها من استفحال للفقر والجوع والتشرد والجنوح، لحظات أضف إلى ذلك تضرّ الأسلحة بالأراضي الفلاحية وتحرق المحاصيل الزراعية والغابات وتفقد الأرض خصوبتها حتى الحيوانات لاتسلم كما تلوّث الهواء وتسمم مياه البحر والأنهار وهكذا تقضي الحرب على الإنسان والحيوان والطبيعة وهي أشبه بالنار التي تلتهم الأخضر واليابس وقد صدق ميخائيل نعيمة حين قال: "إن عدّة السلم الحياة وعدّة الحرب الموت". خلاصة القول الحرب أخطر الآفات لا يمكن القضاء عليها إلا متى تعايش الإنسان مع أخيه الإنسان سلمياً ونهي النفس عن الهوى